الدرس (٠١٦) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال مع الأحاديث التي ساقها النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين في باب الصبر وبيان مكانته العظيمة ومنزلته العلية.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

٣٤- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»، يُرِيدُ عَيْنَيْهِ. رَوَاهُ البُخَارِيُّ[1].

هذا الحديث العظيم فيه الحثُّ على الصَّبر والتَّحلِّي به عند المصاب، ولا سيَّما عندما يبتلى الإنسان بفقد عينيه، فلا يبصر الأشياء، ولا يرى الطَّريق، ولا يستطيع أن يتحرَّك -في الغالب- إلَّا بقائد، ومعلوم حال مَن كُفَّ بصره، ولا سيَّما مَن كان يبصر ويرى الطَّريق، ثمَّ ابتلي بفقد البصر، فيكون الأمر في هذه الحال أعظم، والمصاب أكبر.

فيأتي هذا الحديث حاثًّا المسلم عندما يبتلى بمثل هذا الابتلاء، أن يتحلَّى بالصَّبر، ولنتأمَّل في قول الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الحديث القدسيِّ: «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ**» إذا ابتليته، أي: امتحنته واختبرته بحبيبتيه، أي: بفقد عينيه، والله عَزَّوَجَلَّ وصف العينين بهذا الوصف، قال: حبيبتيه، بمعنى: أنَّ البصر حبيب إلى الإنسان، ومن أحبِّ أعضاء الإنسان إليه، والفائدة

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٦٥٣).

من وجود البصر وبقائه عظيمة، وبفقده يحصل له أسفٌ وألمٌ على فواته؛ لأنَّه يفوته ما لا يخفى من رؤية الأشياء، ومعرفة الطَّريق، وتحقُّق كثير من مصالح العبد.

فالبصر نعمة عظيمة، ومنَّة كبيرة، والبصر حبيبٌ إلى الإنسان، وإذا أردنا أن ندرك هذه النِّعمة ومكانتها؛ لننظر حالنا عندما تطفأ الأنوار، ونكون في ظلامٍ دامس، كيف أنَّ الإنسان يصعب عليه أن يتحرَّك بارتياح وبطمأنينة، وتجد الإنسان يتلمَّس حتَّى يعرف الطَّريق، ورُبَّما يسقط، وربَّما يرتطم بجدار أو نحو ذلك، فلا شكَّ أنَّ البصر عضو حبيب للإنسان، وله مكانة عظيمة في نفسه، فإذا ابْتُلي بفقده، لا شكَّ أنَّها مصيبة عظيمة.

فانظر هذا الثَّواب العظيم الَّذِي ذكره ربُّ العالمين في هذا الحديث القدسيِّ، قال: «فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا -أي: عينيه- الجَنَّةَ» المصيبة بفقد العينين هذه ليست من فعل العبد، والثَّواب إنَّما هو على أعمال العبد الَّتِي هي من فعله، ولهذا قال: «فَصَبَرَ».

لكن لو أنَّ الإنسان ابْتُلي بفقد العينين، وقابل ذلك بالسَّخط والجزع، وعدم الصَّبر؛ يكون بذلك خسر خسارتين، فقد بصره، وفقد الثَّواب العظيم الَّذِي يترتَّب على الصَّبر على ذلك المصاب.

ولهذا قال: «فَصَبَرَ» فإذا قابل هذه المصيبة بالصَّبر، عوَّضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ذلك الجنَّة، وأثابه على ذلك بهذا الثَّواب العظيم.

أيضًا هنا فيه دعوة للإنسان المصاب أن يطلب العوض بالصَّبر واحتساب الأجر على ما فقده من حبيب وصفيٍّ قريبٍ إلى قلبه ونفسه، فإذا فقده يصبر ويحتسب ويرضى، طمعًا فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من عوض، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كريمٌ منَّان، متفضِّل، جواد سبحانه.

ولهذا قال: «فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ» أي: كان الثَّواب على هذا الصَّبر الَّذِي كان منه على فقده لعينيه، هو جنَّات النَّعيم وفيها يلقى من النَّعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٣٥- وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ تَعَالَى لِي، قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعَافِيَكِ**» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفُ، فَدَعَا لَهَا. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

في هذا الحديث حثٌّ على الصَّبر على المصاب، وأنَّ ثواب ذلك الجنَّة، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لهذه المرأة: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ**» وأنَّ المؤمن إذا تلقَّى المصاب بالصَّبر، والاحتساب، وتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعدم الجزع، فإنَّ ثوابه على صبره هو جنَّات النَّعيم.

وهذه القصَّة لهذه المرأة قصَّة عجيبة، بل تُعَدُّ من أروع القصص في باب الاحتشام، ومراعاة المرأة للسِّتر، ممَّا يُوَضِّح حال المرأة المسلمة الصَّادقة في إسلامها المُتَّقية لربِّها الَّتِي تطمع في الفوز برضاه وجنَّات النَّعيم، فهذه امرأة سوداء وكانت مصابة بالصَّرع، ومن المعلوم أنَّ الإنسان إذا أصيب بالصَّرع، لا يشعر بنفسه، والمرأة إذا أصيبت بالصَّرع لا تشعر بنفسها، فقد يتكشَّف بعض بدنها وهي مصروعة فلا تشعر.

فهذه المرأة أتت النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقالت: «إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ» أي: **لديها أمران عظيمان يهمَّانها:**

الأوَّل: أنَّها تصرع، أي: يصيبها الصَّرع.

والثَّاني: أنَّها تتكشَّف، أي: أثناء صرعها، فقد تنحسر ملابسها عن بعض أجزاء بدنها، فيؤلمها ذلك.

مع أنَّها عندما ينكشف بعض بدنها وهي مصروعة لا تشعر بذلك، وليست محاسبة على ذلك ولا ملامة عليه؛ لأنَّه شيءٌ لا تملكه، وشيءٌ لا تريده، فلا يلحقها ملامة، ولا

---

(٢) رواه البخاريُّ (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

يلحقها ذنبٌ في هذا الأمر، لكن من قوَّة الإيمان، وحرصها على الاحتشام، كان يؤذيها هذا الأمر أشدَّ الأذى، فأخبرت النَّبِيَّ ﷺ به، مُتَأَلِّمة فقالت: «إِنِّي أَتَكَشَّفُ».

قالت: «فَادْعُ اللهَ لِي» وهذا فيه جواز التَّوسُّل إلى الله بدعاء الصَّالحين الحاضرين الأحياء، أمَّا إذا كان الصَّالح ميِّتًا، فلا يجوز أن يُتَوَسَّل إلى الله بدعائه، بأن يُطْلَب منه أن يدعو الله؛ لأنَّ الميِّت انقطع عمله، وكذلك إذا كان غائبًا وليس بحاضرٍ، لا يُنَادى الغائب، وأمَّا إذا كان صالحًا، وحاضرًا ، وطلب منه الدُّعاء، فهذا لا بأس به.

قالت: «ادْعُ اللهَ لِي» قال: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعَافِيَكِ» أي: إن شئت أن تصبري على هذا المصاب الَّذِي هو الصَّرع، ويكون ثوابك على هذا الصَّبر هو جنَّات النَّعيم، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك من هذا الأمر الَّذِي ابتلاكِ الله به.

يستفاد من هذا: أنَّ المصائب كفَّارات، وأنَّ الصَّبر عليها سببٌ لرفعة الدَّرجات، والفوز بالجنَّات.

فقالت المرأة: «أَصْبِرُ» أي: أصبر على هذا الصَّرع الَّذِي يصيبني، رجاء ذلك العوض الَّذِي هو الجنَّة، لكن كان يقلقها جدًّا، ويزعجها كثيرًا، قضيَّة التَّكشُّف، فأعادتها مرَّةً ثانية، فقالت: «إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفُ فَدَعَا لَهَا».

دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها ألَّا تتكشَّف، وهذا يفيد -كما تقدَّم- الحياءَ العظيم والحشمة والسِّتر الَّذِي كان عليه نساءُ السَّلف من الصَّحابيَّات ومن اتَّبعهنَّ بإحسان.

وجديرٌ بالمرأة المسلمة وهي تستمع إلى هذه القصَّة العظيمة لهذه المرأة أن تلتجئ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصدق وأن تدعوه بإلحاح أن يعيذها من التَّكشُّف، وأن يعيذها من التَّبرُّج، وأن تُكْثِر من هذا الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي**»(٣)، ثمَّ تتبع هذه الدعاء ببذل الأسباب النَّافعات، الَّتِي تعينها على تجنُّب التَّبرُّج، والمحافظة على حشمتها

---

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٧١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وسترها وعفَّتها، إلى أن تلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي صابرة محتسبة، فيكون ثوابها على هذا الصَّبر العظيم جنَّات النَّعيم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٣٦- وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

هذا حديثٌ عظيمٌ في باب الصَّبر، ولا سيَّما الصَّبر في الدَّعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ذلك أنَّ الدَّاعي إلى الله وإلى الحقِّ والهدى، ربما واجه معاداة أو أذى ممَّن يدعوهم، ومَن يعمل على إنقاذهم من الضلال، فيجب عليه أن يحرص على التحلي بالصَّبر، وأن يكون من الصَّابرين على الأذى الَّذِي يلقاه مَن يدعوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد قال الله في سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، فلمَّا ذكر التَّواصي بالحقِّ: أتبعه بالتَّواصي بالصَّبر؛ لأنَّ الدَّاعي إلى الحقِّ والهدى عرضةٌ للأذى ممَّن يدعوهم، فعليه أن يتحلَّى بالصَّبر، لتمضي الدَّعوة وتأخذ طريقها.

وقد ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم مثالاً عظيماً رائعاً في الصَّبر في باب الدَّعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يحكي صلى الله عليه وسلم نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، فكان يسلت الدَّم عن وجهه ، ويقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**».

وهذا دليل على عظم صبره وحلمه، فالدَّم يسيل من وجهه بسبب أذى قومه، واعتدائهم عليه، وفي الوقت نفسه يسلت هذا الدَّم عن وجهه ويقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**».

---

(٤) رواه البخاريُّ (٣٤٧٧)، ومسلم (٣٢٩٠).

فجمع بين أمرين: الدُّعاء لهم بالمغفرة، والاعتذار لهم بأنَّهم لا يعلمون، وهذا مقام عظيم من مقامات الصَّبر الَّتِي ينبغي أن يتأمَّلها الدَّاعي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليتحلَّى بالصَّبر، وليكون من أهله.

وبعض الدُّعاة قد لا يتحمَّل بعض الكلمات اليسيرة من الأذى القولي، فضلًا عن أن يتحمَّل مثل هذا الأذى العظيم بالاعتداء أو الضَّرب أو نحو ذلك، فإذا قرأ مثل هذا المثال لحال نبيٍّ من أنبياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكيف أنَّه صبر وتحمَّل الأذى وهو يدعو لقومه ويعتذر لهم، فإنَّ مثل هذا ولا شكَّ له أثره البالغ في نفوس الدُّعاة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ممَّا يعين العبد على التَّحلِّي بالصَّبر، والتَّخلُّق بهذا الخلق العظيم.

وقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا» المحاكاة أن يفعل مثل فعل مَن يحاكيه، وهذا في مقام التَّعليم والبيان، واستحضار هذا العمل العظيم المجيد الَّذِي قام به هذا النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي حكى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعله، فحكاية فعل الغير في مثل هذا المقام عملٌ محمودٌ؛ لما فيه من النَّفع والفائدة والأثر.

وقد ثبت في «سنن التِّرمذيِّ» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ أَحَدًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**»(٥)، والمراد بـ: «**حَكَيْتُ أَحَدًا**»، أي: فعلت فعله، مثل أن يمشي الإنسان مثلًا مُتعارِجًا، أو مُطأطئًا رأسه، أو مُغمضًا عينيه أو إحدى عينيه يحكي حال بعض من هؤلاء صفتهم، فهذا مذموم، وهو ينطبق عليه هذا الحديث: «**مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ أَحَدًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**».

وهذا يُبَيِّن لنا الخطأ الَّذِي يقع فيه مَن يقلد الآخرين في الأصوات أو الحركات من باب التَّنكيت وإضحاك النَّاس، فهذا عمل لا يجوز، وهو داخل في باب الغيبة، ولهذا جاء عن

---

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٥٠٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

النَّوويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «ومن الغيبة المُحَرَّمة: المحاكاة، بأن يمشي مُتعارِجًا أو مطأطئًا رأسه، أو غير ذلك من الهيئات»(٦).

ومن أعظم ما يستفاد من هذا الحديث: أن يتجنَّب الدَّاعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ، بل عموم المسلمين، معاملة الجاهل بمثل عمله وأسلوبه وطريقته، والدَّاعي إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في تعامله مع الجاهل، يتعامل معه معاملة الطَّبيب مع المريض مع الفارق أيضًا!

فعندما يتعامل الطَّبيب مع المريض ولا سيَّما مَن اشتدَّ به المرض، ولا سيَّما أيضًا إذا تعامل معه بآلةٍ كإبرة أو مشرط أو نحو ذلك، تقتضيه معالجة ذلك المريض، قد يغضب المريض، وقد يسيء إلى الطبيب، فالطَّبيب النَّاصح لا يبالي بذلك، ويدرك أنَّ هذه الأمور الَّتِي تأتي منه إنَّما هي من سيطرة المرض وشدَّته على المريض.

والدَّاعي إلى الله سبحانه أولى بذلك، ومَن يتعامل معهم هم بحاجة إلى الحكمة واللُّطف والرِّفق، والكلمة الطَّيِّبة، وإن أساؤوا إليه، فلا يقابل الإساءة بالإساءة، أو الاعتداء بالاعتداء، بل يصفح ويحلم ويرفق، مُتَدَرِّجًا معهم بهذه الأخلاق والتَّعاملات، لعلَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يستنقذهم على يديه، ليكونوا من أهل الحقِّ والهدى.

الحاصل: أنَّ هذا الَّذِي جاء في هذا الحديث يعد مثالاً رفيعـًا في مقام الصَّبر في الدَّعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا.

هذا وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطـًا مستقيمـًا. وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(٦) انظر: كتاب الأذكار للنَّوويِّ (ص٣٣٨).